في مواجهة الجميع
حروب الجهاديين:
من «العدو القريب» إلى «العدو البعيد»

سمير الحمادي

المركز العربي لدراسات التطرف
The Arab Center for Extremism Studies

جميع الحقوق محفوظة © 2023

المركز العربي لدراسات التطرف
The Arab Center for Extremism Studies

هناك توتر إستراتيجي عند التيار الجهادي الحالي حول مسألة العدو الذي يجب إعلان الجهاد عليه أولاً: هل هو الأنظمة العربية التي تمثل «العدو القريب» للجهاديين، أم هو أمريكا وحلفاؤها الغربيون الذين يجسدون «العدو البعيد»؟

مقدمة

تأسست الهياكل الأولى للحركة الجهادية المعاصرة في ستينيات القرن الماضي التي شهدت حدثين فارقين شكلا صدمة وحافزاً لصعود التيار الإسلامي: إعدام سيد قطب عام 1966، وهزيمة العرب أمام إسرائيل بطريقة مهينة في حرب 67.

كان التوجه الاستراتيجي للحركة الجهادية في بداية تأسيسها ينحصر في مواجهة «العدو الداخلي» المتمثل في الأنظمة الحاكمة في العالم العربي، باعتبارها أنظمة فاشلة، والأهم من ذلك، أنها علمانية ولا تحكم بالشريعة الإسلامية، غير أن هذا التوجه تغير بصورة كبيرة في التسعينيات بسبب المستجدات السياسية الإقليمية والدولية التي فرضتها حرب الخليج الثانية عام 1990، والتي دفعت الجهاديين إلى إعادة ترتيب أولوياتهم وتحويل وجهة عملياتهم نحو «عدو» جديد تم تحديده في الغرب، وعلى وجه الخصوص الولايات المتحدة الأمريكية.

تسعى هذه الورقة إلى تتبع مسار التحول في استراتيجية الجهاديين من «الجهاد المحلّي / القطري» إلى «الجهاد الخارجي / العالمي». تجادل الورقة بأن حرب الخليج الثانية كانت حاسمة في هذا التحول الذي مهد الطريق إلى 11 سبتمبر: ذلك اليوم الكارثي الذي غير وجه العالم، وما زالت تبعاته تتفاعل حتى الآن.

قتال «العدو القريب»

بدأت الحركة الجهادية الحديثة حربها لإقامة الدولة الإسلامية وفرض النظام الإسلامي بمواجهة «العدو القريب» الذي يتمثل في الأنظمة الحاكمة في العالم العربي.

ويرى الجهاديون أن الأنظمة العربية واقعة في الكفر الصريح، لإعراضها عن الحكم بالشريعة الإسلامية، وموالاتها للكفار ودخولها في طاعتهم، وأن الإطاحة بها يجب أن تتم عن طريق الجهاد.

وكانت الثورة الإيرانية التي قامت في فبراير 1979، وجاءت بالخميني إلى الحكم، ملهمة في هذا السياق. فعلى الرغم من أن العلاقة بين التيار السلفي والشيعة، تاريخياً، علاقة منافسة وعداء، شكل نجاح ثورة الخميني أول إنجاز حقيقي تحققه حركة إسلامية في العصر الحديث، بإزاحة نظام حكم علماني / موالٍ للغرب وإقامة دولة إسلامية أصولية على أنقاضه.

وتم التأصيل الشرعي لقتال «العدو القريب» في مختلف الأدبيات الجهادية التي ظهرت في فترة السبعينيات والثمانينيات في مصر، أبرزها «رسالة الإيمان» لصالح سرية (1973)، «الفريضة الغائبة» لمحمد عبد السلام فرج (1980)، أصناف الحكام وأحكامهم لعمر عبد الرحمن (1984)، «ميثاق العمل الإسلامي» (1984) و«حتمية المواجهة» (1987) للجماعة الإسلامية، «منهج جماعة الجهاد الإسلامي» (1986) و«الجهاد ومعالم العمل الثوري» (1987) لعبود الزمر، «فلسفة المواجهة» لطارق الزمر، «العمدة في إعداد العدة» لعبد القادر عبد العزيز (1988).

وكان سيد قطب قد أصل مبكراً للمنهج الانقلابي ضد الأنظمة العربية في كتابه المرجعي / التوجيهي «معالم في الطريق» الذي صدر عام 1962، وحاول ترجمته إلى برنامج عمل من خلال التنظيم الإخواني المسلح الذي قاده للإطاحة بحكم جمال عبد الناصر عام 1965.

وظهرت في مصر العديد من المجموعات الجهادية التي حاولت الاستيلاء على السلطة بالقوة لإقامة الدولة الإسلامية، أبرزها مجموعة المعادي التي شارك في تأسيسها أيمن الظواهري عام 1968، ومجموعة شباب محمد المعروفة إعلامياً باسم «تنظيم الفنية العسكرية»، والتي أسسها الفلسطيني صالح سرية عام 1973، وكانت مرتبطة بجماعة الإخوان المسلمين، ومجموعة يحيى هاشم التي تشكلت عام 1975، ومجموعة مصطفى يسري التي تشكلت عام 1977، ومجموعة محمد سالم الرحال (أردني كان مقيماً بالقاهرة) التي تأسست عام 1977 أيضاً، ومجموعة محمد عبد السلام فرج التي تشكلت عام 1979، بالإضافة إلى جماعة «السماويين» التي أسسها طه السماوي (وشهرته عبد الله السماوي)، والجماعة الإسلامية التي بدأت كحركة طلابية في الجامعات في منتصف السبعينيات ثم تحولت إلى تنظيم كبير ينافس جماعة الإخوان المسلمين.

في عام 1981، تحالفت مجموعة محمد عبد السلام فرج مع الجماعة الإسلامية بقيادة كرم زهدي وناجح إبراهيم وعاصم عبد الماجد، وشكلوا تنظيماً موحداً باسم «حركة الجهاد الإسلامي»، ووضعوا على رأس التنظيم الشيخ الأزهري عمر عبد الرحمن، ونجحوا في اغتيال الرئيس أنور السادات في أكتوبر 1981.

وكان عمر عبد الرحمن يوصف في الإعلام العربي والدولي وقتها بـ «خميني مصر»، على أساس أنه يؤدي نفس الدور التحريضي / التوجيهي الذي كان يؤديه الخميني في إيران.

بعد اغتيال السادات وتولي الرئيس حسني مبارك الحكم، ظهرت مجموعات جهادية جديدة تسير على الطريق نفسه، وإن بدرجة أقل من الانتشار والفاعلية، أبرزها تنظيم "الشوقيون" الذي أسسه المهندس شوقي الشيخ بمحافظة الفيوم عام 1985. وكان الشيخ من كوادر الجماعة الإسلامية ثم انشق عنها وكفّر قادتها وعلى رأسهم أميرها الروحي عمر عبد الرحمن. واشتهر هذا التنظيم بسطوه على محلات الذهب المملوكة للمسيحيين، واغتيال ضباط الشرطة. وفي أبريل 1990، دخل الشيخ في اشتباك مسلح مع قوات الأمن انتهى بمقتله مع عدد كبير من أتباعه.

وظهر عام 1987 تنظيم جديد باسم "التوقف والتبين"، وعرف إعلامياً باسم "الناجون من النار"، بقيادة الطبيب مجدي الصفتي الذي كان عضواً في جماعة الجهاد ثم انشق عنها بعد خلافات فقهية مع قادتها. حاول التنظيم اغتيال

وزيرين سابقين للداخلية، بالإضافة إلى أحد كبار الصحفيين المقربين من النظام، كما دخل في اشتباك مسلح مع قوات الأمن عام 1993 انتهى باعتقال زعيمه والحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة (توفي في السجن عام 2020).

وعلى هامش هذه التنظيمات، ظهرت بين عامي 1972 / 73 جماعة المسلمين المعروفة إعلامياً بـ "التكفير والهجرة"، والتي تحمل أفكار خاصة يتقاطع فيها التوجه الجهادي مع نزعة تكفيرية شاملة موروثة عن الخوارج. أسس الجماعة شكري مصطفى: العضو السابق بجماعة الإخوان المسلمين، بعد أن توصل، وهو في السجن على ذمة إحدى قضايا الإخوان، إلى قناعة نهائية مفادها أن جميع من يعيش على هذه الأرض "كفار"، وأن جماعته هي الجماعة الوحيدة المسلمة اليوم، وأنه "أمير آخر الزمان" الذي اصطفاه الله، ليجدد به الدين ويعيد على يديه الإسلام على هيئته الأولى "كما بدأ" في زمن النبوة. ونفذت الجماعة العديد من عمليات التفجير والاغتيال أشهرها اغتيال العالم الأزهري ووزير الأوقاف السابق حسين الذهبي عام 1977. وتم اعتقال شكري مع معظم قيادات وأعضاء جماعته وأعدم عام 1978.

في سوريا، أسس مروان حديد تنظيم الطليعة المقاتلة لجند الله عام 1970، والذي تغير اسمه عام 1979 إلى الطليعية المقاتلة للإخوان المسلمين. دخلت الطليعة في مواجهة مسلحة مفتوحة مع النظام البعثي استمرت لسنوات، وكانت أبرز محطاتها اعتقال وتصفية حديد عام 1976، ومجزرة مدرسة المدفعية بحلب عام 1979، ومجزرة "سجن تدمر" عام 1980، ومجزرة حماة عام 1982 التي قتل فيها ما بين 20 ـ 40 ألفاً من سكان المدينة، وانتهت المواجهة بهزيمة التنظيم وانهياره عام 1985. وقد وثق أيمن الشربجي: أحد قادة التنظيم، تفاصيل المواجهة في مذكراته التي نشرت على حلقات على الانترنت عام 2010، ثم جمعت في كتاب بعنوان "على ثرى دمشق" صدر عام 2017.

في لبنان، أسس هشام الشريدي عام 1987 "عصبة الأنصار" في مخيم عين الحلوة للاجئين الفلسطينيين، والتي نفذت العديد من عمليات التفجير والاغتيال. ثم أسس ابنه عبد الله الشريدي في المخيم نفسه عام 1991 "عصبة النور" التي دخلت في مواجهات مسلحة مع حركة فتح في لبنان، واغتالت العديد من ضباط الاستخبارات اللبنانية.

في المغرب، أسس عبد الكريم مطيع عام 1969 حركة الشبيبة الإسلامية التي نفذت عملية اغتيال القيادي اليساري البارز عمر بن جلون عام 1975، ثم أعلنت عام 1980 الجهاد على نظام الملك الراحل الحسن الثاني.

كما أسس عبد العزيز النعماني عام 1978 حركة المجاهدين بالمغرب التي أعلنت هي الأخرى الجهاد لإسقاط النظام الملكي.

في الجزائر، أسس مصطفى بويعلي عام 1979 الحركة الإسلامية المسلحة التي قامت بالعديد من العمليات المسلحة ضد منشآت حكومية وأهداف أمنية أبرزها الهجوم على ثكنة عسكرية عام 1985. وتمكنت أجهزة الأمن من تصفية بويعلي في يناير 1987 واعتقال معظم أفراد الحركة وزجهم في السجون.

ومن بقايا هذه الحركة، تشكلت المجموعات الجهادية الأولى في الجزائر في أوائل التسعينيات بعد إلغاء نتائج الانتخابات التشريعية التي فازت بها الجبهة الإسلامية للإنقاذ (إخوان مسلمون)، والتي توحدت في ما بينها تحت اسم "الجماعة الإسلامية المسلحة" المعروفة اختصاراً بـ "الجيا".

كما ظهرت في الجزائر خلال تلك الفترة المعروفة باسم «العشرية السوداء» العديد من التنظيمات التي كانت تستهدف إسقاط النظام مثل حركة الدولة الإسلامية التي أسسها عام 1991 سعيد مخلوفي، وهو أحد الأعضاء المؤسسين للجبهة الإسلامية للإنقاذ، ومحرر وثيقة «العصيان المدني» الذي أعلنته الجبهة في مايو 1991. وحركة الباقون على العهد التي أسسها قمر الدين قربان عام 1991 كذلك، وحركة الدولة الإسلامية التي أسسها عبد القادر شبوطي عام 1992، والجبهة الإسلامية للجهاد المسلح التي تأسست عام 1992 بقيادة عبد الوهاب عمارة، والجماعة السنية للدعوة والجهاد التي تأسست أيضاً في أوائل التسعينيات بقيادة عبد القادر صوان (أبو ثمانة)، وجماعة حماة الدعوة السلفية التي تأسست عام 1994 بقيادة قادة بنشيحة (عبد الرحيم بخالد).

في ليبيا، أسس علي العشبي عام 1982 أول مجموعة جهادية تسعى إلى إسقاط نظام معمر القذافي، ومن العمليات التي قامت بها المجموعة اغتيال أحد قيادات اللجان الثورية بمدينة بنغازي عام 1986. بعدها ظهرت حركة الشهداء الإسلامية التي أسسها محمد المهشهش (سياف) عام 1989، وفي العام نفسه، أسس عوض الزواوي حركة الجهاد التي دخلت في اشتباكات مسلحة مع قوات الأمن في كل من بنغازي واجدابيا قتل فيها معظم أعضاء الجماعة.

في تونس، ظهرت في الثمانينيات مجموعة صغيرة باسم «ألوية الجهاد» قامت ببعض عمليات العنف المحدودة ضد مؤسسات حكومية، وقد اتهمت السلطات التونسية وقتها الشيخ أحمد الأزرق الذي كان عضواً في رابطة العالم الإسلامي والمكلف بالقضية الأفغانية، بقيادة المجموعة، فتم اعتقاله عام 1986 في السعودية التي كان لاجئاً بها، وسلم إلى تونس وحكم عليه بالإعدام.

في الأردن، ظهرت بعض المجموعات الصغيرة التي تمكنت الأجهزة الأمنية من التعامل معها وتفكيكها بسرعة مثل جيش محمد الذي تشكل عام 1991، والنفير الإسلامي الذي تأسس عام 1992، ومجموعة أخرى أعلنت السلطات الأردنية عن اعتقال أفرادها عام 1994، وعرفت إعلامياً باسم «الأفغان الأردنيون».

لقد كانت الأنظمة العربية تمثل موضوع الصراع في فكر الجماعات الجهادية خلال فترة السبعينيات والثمانينيات، وهي الهدف الذي تسعى إليه، لذلك، كانت كل التحركات الجهادية محصورة في نطاق قطري / وطني، وكل تنظيم جهادي كان مشغولاً بقتال عدوه القريب الذي هو النظام الحاكم في بلده، ولم تكن فكرة «الجهاد الخارجي» مدرجة على أجندته القتالية ولا مطروحة عنده من الأساس.

في مسار مواز للأحداث، كان الجهاد الأفغاني الذي بدأ في ديسمبر 1979، مع الغزو السوفيتي لأفغانستان، قد تحول في الثمانينيات إلى جهاد عالمي تدعمه الولايات المتحدة الأمريكية والغرب ومعظم الدول العربية بالمال والسلاح والإعلام والفتاوى.

الاعتقالات والمطاردات التي لاحقت الجهاديين العرب في بلدانهم، خاصة عناصر جماعة الجهاد والجماعة الإسلامية في مصر، حفزت الكثير منهم على الهجرة إلى أفغانستان، باعتبارها ملاذاً آمناً من جهة، ومن جهة أخرى ساحة مناسبة للتدريب العسكري والتعود على نيران المعارك قبل العودة إلى أوطانهم لمواجهة حكوماتها.

في أكتوبر 1984، أسس عراب الجهاد الأفغاني عبد الله عزام بتمويل من أسامة بن لادن «مكتب خدمات المجاهدين» لتسهيل التدريب العسكري وتنظيم مشاركة المتطوعين العرب في الجهاد الأفغاني، ومنذ ذلك التاريخ بدأ التدفق العربي على أفغانستان.

في عام 1986، اختلف بن لادن مع عزام حول إدارة «مكتب الخدمات» وكيفية دعم الحرب الأفغانية ودور العرب في هذه الحرب، فأنشأ معسكر «المأسدة» الذي شكل النواة الأولى لمجموعته الجهادية الخاصة التي ستعرف لاحقاً باسم «القاعدة».

في عام 1987، قام أيمن الظواهري، الذي انتقل إلى أفغانستان بعد خروجه من السجن في قضية اغتيال السادات، بإعادة بناء جماعة الجهاد، وتم اختيار سيد إمام الشريف أو عبد القادر عبد العزيز أميراً لها والظواهري نائباً له، وكذلك فعلت الجماعة الإسلامية التي أعادت بناء هيكلها التنظيمي والإعلامي، وكان من أبرز قادتها في أفغانستان محمد الإسلامبولي: شقيق خالد الإسلامبولي: قاتل السادات، وطلعت فؤاد قاسم (أبو طلال القاسمي).

في أواخر عام 1987، أسس بن لادن تنظيم القاعدة، وكانت فكرة التنظيم تتلخص في تجميع الجهاديين العرب والأجانب في كيان قتالي عابر للحدود قائم على أساس الانتماء الديني وليس القومي، حيث كوّنوا قوة ضاربة كبيرة يمكن تحريكها للمشاركة في أنشطة جهادية خارج أفغانستان، وبالتحديد في الدول العربية.

كان رهان بن لادن وقتها محدداً في نقل المعركة، بعد انتهاء الجهاد الأفغاني، إلى اليمن الذي كان مقسماً إلى شمال وجنوب يسيطر عليه نظام ماركسي مدعوم من الاتحاد السوفيتي.

كان اليمن هو المشروع الخاص لبن لادن بعد أفغانستان. كان يظن أن بإمكانه استنساخ التجربة الأفغانية في اليمن، وأن جغرافيتها الجبلية وقبائلها المسلحة تسمح بتحويلها إلى صورة أخرى من أفغانستان، وتمت عدة اجتماعات داخل القاعدة نوقشت فيها نوعية الحرب الممكنة هناك واحتياجاتها البشرية واللوجستية والموقف الإقليمي والدولي. بعدها، كلف بن لادن طارق الفضلي: أحد الجهاديين اليمنيين المقربين منه، بالعودة إلى اليمن وإعداد البنية التحتية لبدء الجهاد هناك.

لم يكن لبن لادن ولا للجهاديين العرب في تلك الفترة أي أهداف أو إستراتيجية تتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية أو الغرب عموماً.

كان كل جهادي عربي في أفغانستان يفكر في بلده الأصلي.

المصريون من تنظيميْ الجهاد والجماعة الإسلامية، الذين اعتمدت عليهم القاعدة عند تأسيسها، وشكلوا عمودها الفقري منذ انطلاقتها، كانوا يركزون تماماً على مصر، وكان الهدف الأساسي من تواجدهم في أفغانستان في ذلك الوقت هو التدريب والإعداد للعودة إلى بلدهم والإطاحة بالنظام الحاكم هناك، وقد ضغطوا كثيراً على بن لادن لدعمهم في مشروعهم داخل مصر.

وتنظيم الجهاد بالذات، كان يخطط للذهاب إلى السودان: البلد المجاور لمصر، بعد أن استولى الإسلاميون من الجبهة الإسلامية القومية على الحكم هناك، واتخاذه قاعدة لعملياته ضد الحكومة المصرية، وكان قد بدأ بالفعل في ترحيل عدد من أفراده إلى السودان بعد أن انتهت الحرب الأفغانية تقريباً.

وكان منظر وأمير التنظيم عبد القادر عبد العزيز قد نشر عام 1988 بمدينة بيشاور الباكستانية: القاعدة الخلفية للجهاد الأفغاني، كتابه الأشهر «العمدة في إعداد العدة للجهاد في سبيل الله تعالى»، والمعروف في الأوساط الجهادية باسم «زاد المجاهد»، وقد جاء فيه:

«وقتال هؤلاء الحكام المرتدين مقدم على قتال غيرهم من الكفار الأصليين من يهود ونصارى ووثنيين، وهذا من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه جهاد دفع متعين، وهو يقدم على جهاد الطلب.

الثاني: كونهم مرتدين... وقتال المرتد مقدم على قتال الكافر الأصلي.

الثالث: كونهم الأقرب إلى المسلمين والأشد خطراً وفتنة».

وكان هذا الكتاب الذي يقول مؤلفه إنه تعمد صياغته على شكل رسالة موجهة إلى معسكرات التدريب «باعتبار معسكر التدريب أنموذجاً مصغراً للعمل الإسلامي الجماعي، وما ينطبق على هذا المعسكر من ضوابط شرعية ينطبق كذلك على أي مجتمع إسلامي»، المقرر الأساسي الذي يتم تدريسه في معسكرات تنظيم الجهاد والقاعدة أيضاً في أفغانستان.

أما الجزائريون، فقد عاد معظمهم إلى بلدهم مع اندلاع الأحداث فيها عام 1992، وانخرطوا في العنف المسلح ضد الدولة، وشاركوا في تأسيس المجموعات الجهادية التي ستتوحد (مع قدامى حركة بويعلي) تحت اسم «الجماعة الإسلامية المسلحة»، وبرز منهم سعيد قاري الذي كان عضواً في مجلس شورى القاعدة، والدكتور أحمد الود الذي كان معروفاً في أوساط العرب في أفغانستان بنزعته التكفيرية، وعبد المجيد الجزائري الذي كان أيضاً عضواً في القاعدة ثم تركها في بداية التسعينيات وأسس معسكراً خاصاً بالجزائريين في جلال آباد، والثلاثة قتلوا في اشتباكات مسلحة مع قوات الأمن في الجزائر.

كذلك، في مطلع عام 1990، أسس الليبيون في أفغانستان، الذين كانوا على علاقة وثيقة بالقاعدة، وأبرزهم مفتاح الذوادي (عبد الغفار)، وعبد الحكيم بلحاج (أبو عبد الله الصادق) وسامي الساعدي (أبو المنذر)، الجماعة الإسلامية المقاتلة في ليبيا، وكان هدفهم الأساسي الإطاحة بنظام معمر القذافي، وقاموا بمحاولتين لاغتياله، كما نفذوا العديد من العمليات المسلحة ضد أهداف حكومية وأمنية داخل ليبيا خلال السنوات الأولى من التسعينيات.

وفي اليمن، أسس طارق الفضلي تنظيم الجهاد عام 1990، وقام التنظيم بعدة محاولات لاغتيال قيادات في الدولة، خاصة قيادات الحزب الاشتراكي اليمني المشارك في الحكومة، كما نجح في إقناع بعض القبائل بالمشروع الجهادي للقاعدة وجند الكثير من شبابها، وكان بن لادن يعتمد على الفضلي وتنظيمه لإرساء البنية التحتية للعمل الجهادي في اليمن على أساس أنه سيكون محطته القادمة للجهاد.

وحتى عبد الله عزام، الذي ينسب إليه أنه مؤسس الجهاد العالمي ومنظره الأول، كان يفكر في وطنه فلسطين عندما كان يتحدث عن الجهاد خارج أفغانستان، وفي عام 1988، أحضر فلسطينيين وأردنيين إلى معسكر صدى التابع لمكتب الخدمات ودربهم على القيام بعمليات مسلحة داخل إسرائيل.

وفي عام 1990، طبع المنظر الجهادي البارز أبو محمد المقدسي في بيشاور أيضاً كتابه «الكواشف الجلية في كفر الدولة السعودية» الذي ألفه باسم مستعار هو مرشد عبد العزيز بن سليمان النجدي، وكان المقدسي يدرّس وقتها في معسكرات القاعدة ومعاهدها الشرعية. ويعد هذا الكتاب أول وثيقة تكفير للنظام السعودي في الأدبيات الجهادية الحديثة، وكان له دور أساسي في إقناع السعوديين الذين كانوا في أفغانستان وقتها بكفر دولتهم ووجوب الخروج عليها والجهاد ضدها، وقد تسربت نسخ منه إلى داخل السعودية، ثم طبع من جديد هناك بطريقة سرية ووزع منه مئات النسخ.

والخلاصة: لم يكن يُنظر إلى أفغانستان وقتها من قبل الجهاديين العرب سوى أنها أرض للتدريب والإعداد واكتساب الخبرات القتالية اللازمة، وربما تعبئة وتجنيد أفراد جدد من الشباب المتدين، للعودة إلى بلادهم وإسقاط أنظمة الحكم فيها.

ولم تكن فكرة مواجهة الغرب حاضرة في البرنامج العسكري والسياسي لأي من التنظيمات الجهادية العربية التي جاءت إلى أفغانستان أو تلك التي تأسست على أرضها خلال فترة الحرب. كانت أنظار الجميع مشدودة إلى «دار الإسلام» التي لم تعد كذلك بسبب حكام «مرتدين» اغتصبوا السلطة وبدلوا الدين وحكموا بقوانين مخالفة لما أنزل الله.

وهو ما اعترف به الظواهري نفسه، حين أشار في كتابه / مذكراته «فرسان تحت راية النبي» إلى أن القضية الأفغانية لم تكن تعني له الكثير، ولم تكن أفغانستان تمثل له أكثر من ساحة تدريب يجب الاستفادة منها لإعداد جهاديين مدربين على مستوى عال تمهيداً لنقل المعركة إلى داخل مصر. لقد كانت أفغانستان ـ على حد تعبيره ـ أفضل

«محضن» تنمو فيه البذرة النابتة للحركة الإسلامية الجهادية، وأنسب مكان تكتسب فيه «خبراتها العملية والقتالية والسياسية والتنظيمية».

قتال «العدو البعيد»

في صيف 1990، قام النظام العراقي بقيادة صدام حسين بغزو الكويت. اضطرت السعودية، وهي ترى نفسها هدفاً تالياً للعراق، لاستدعاء تحالف عسكري أجنبي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية للدفاع عنها.

أحدث هذا الإجراء شرخاً في بنية التيار الديني / السلفي: الحليف التاريخي للأسرة المالكة، الذي وجد نفسه في مواجهة صريحة وعنيفة مع أجنحته الأكثر تشدداً من الشباب والعلماء الجدد الذين اتخذوا موقفاً معارضاً لنشر قوات أجنبية على الأراضي السعودية، ووجهوا انتقادات لاذعة للنظام وصلت إلى حد تكفيره وتكفير العلماء الذين يدعمونه.

كان استقدام الحكومة السعودية لمئات الآلاف من الجنود الأجانب إلى البلاد ينطوي على مخالفة مباشرة وعلنية للسرديات العقائدية للمذهب السلفي / الوهابي الذي يمثل الأساس الديني والأيديولوجي للدولة.

فمن جهة، هناك مسألة التحالف مع الكفار والاستعانة بهم في الحرب والقتال التي تقرر أدبيات الدعوة النجدية / الوهابية أنها «محرمة» تحريماً عاماً لا يستثنى منه شيء، سواء كانت الاستعانة لقتال عدو مسلم أو كافر مثلهم، وأن الاستعانة بالكفار تعني بالتبعية موادتهم والركون إليهم واتخاذهم أولياء، وقد تستلزم الدخول تحت حكمهم، أو تمكينهم من بلاد المسلمين، وهذا كله من الكفر الذي يخرج من الملة.

ومن جهة ثانية، هناك مسألة «الخصائص الشرعية» التي تنفرد بها الجزيرة العربية، باعتبارها مهد الإسلام، والتي تجعل لها أحكاماً خاصة تميزها عن غيرها من البلاد الإسلامية، منها أنه «لا تجوز إقامة اليهود والنصارى والمشركين في جزيرة العرب، لا إقامة دائمة ولا مؤقتة، وأنه لا يجوز مطلقاً تمكين كافر من تملك عقار أو أرض أو منزل خاص أو فندق أو شركة في جزيرة العرب ولا فتح مجال للاستثمار التجاري لهم، وأنه لا يجوز إبرام عقد أو عهد للكفار حكومات أو منظمات أو شركات أو أفراداً إذا كان يلزم من هذا العقد تمكينهم من دخول جزيرة العرب والإقامة بها أو الاستثمار بها، وأنه يجب ـ وجوباً شرعياً حتمياً ـ إخراج من دخل جزيرة العرب أو كان بها من جميع أصناف الكفار دون النظر إلى أي اعتبار».

وهكذا، أدت أزمة / حرب الخليج الثانية إلى انقسام التيار الديني في السعودية (ولفترة طويلة) إلى خطين توحدهما المرجعية العقائدية لكن يفرقهما الموقف السياسي: خط سلفي مؤيد للنظام، وتمثله هيئة كبار العلماء ورئيسها آنذاك عبد العزيز ابن باز، الذي دافع عن قرار الاستعانة بفوات أجنبية وحاول تبريره شرعياً، وخط سلفي مناهض للنظام، تبنته نخبة دينية جديدة، ميزت نفسها بحدود واضحة، وتمسكت بفرض موقفها / شريعتها ولو بالتكفير والعنف.. وإعلان الحرب.

كان بن لادن في السعودية، عائداً من أفغانستان، عند اندلاع أزمة الخليج. اصطف منذ اللحظة الأولى إلى جانب المعسكر الديني المعارض لنشر قوات أمريكية على الأراضي السعودية، وحاول التدخل لدى الحكومة لإقناعها بالعدول عن قرارها.

اقترح بن لادن على المسؤولين، بشكل جدي، نقل الجهاديين الذين كانوا معه في أفغانستان إلى السعودية للدفاع عنها، واستدعى بالفعل عدداً منهم، واشترى كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر وقام بتخزينها في أماكن سرية في الصحراء، وأعد خططا وتكتيكات افتراضية لحرب عصابات طويلة مع الجيش العراقي، كما نشط بحماس في إلقاء الخطب المحرضة على الجهاد، الأمر الذي أثار قلق وسخط الحكومة السعودية التي طلبت منه أن يوقف كل شيء، وأن يتوقف هو نفسه عن الكلام، ويبدو أنه لم يمتثل، فوضعته رهن الإقامة الجبرية في بيته بجدة.

في أبريل 1991، احتال على المسؤولين للسماح له بالسفر بعد أن وجد نفسه محاصراً في بيته: غاضباً ومحبطا، ليغادر السعودية وقد أصبحت المعالم الرئيسة لمشروعه الجهادي واضحة في ذهنه، وليبدأ في التفكير منذ تلك اللحظة في سيناريو ومكان الطلقة الأولى التي سيعلن من خلالها حربه العالمية على «الأمريكان».

انتقل أولاً إلى أفغانستان التي كانت غارقة في أوحال حربها الأهلية، وفشلت محاولاته لإنهاء الاقتتال بين أمراء الجهاد: رفاقه السابقين، فتركها في ديسمبر 1991 إلى العاصمة السودانية الخرطوم التي كانت في ذلك الوقت الملاذ الآمن للجماعات الإسلامية العربية المعارضة لأنظمة الحكم في بلدانها.

في السودان، تحرك بسرعة لإعادة ترتيب أهدافه، وتأمين الموارد المالية لتنظيمه، وتوزيع المهام على القيادات والكوادر المحيطة به، وبناء خطوط اتصال مع الجماعات الجهادية الفاعلة في مختلف أنحاء العالم، وكذلك مع الجماعات الإسلامية الأخرى، وإقامة علاقات ولو شكلية معها؛ وذلك لحشد الدعم الشعبي الإسلامي لمشروعه القتالي، حيث كان يرى أن حربه مع أمريكا تهم جميع المسلمين، كما قام بتفعيل / تجهيز معسكراته التدريبية في أفغانستان التي ظلت مفتوحة منذ أيام الحرب مع السوفيت لكن على نطاق ضيق، ووضع خطة شاملة للتعبئة والتجنيد تتناسب مع البيئة الأمنية الجديدة للتنظيم.

وبحلول عام 1992، كان بن لادن قد أجرى مراجعة شاملة لـ «القاعدة» على صعيد بنيتها العقائدية وهيكلها التنظيمي واستراتيجيتها العسكرية في المرحلة المقبلة، والتي باتت موجهة بشكل رئيس لقتال «العدو البعيد» الأمريكي. تم تحديد الأهداف بطريقة واضحة، وبدأ التخطيط العملياتي للحرب.

كانت الخطة العامة التي وضعها بن لادن واستراتيجيو القاعدة لتلك المرحلة تعتمد على الاستهداف المتكرر، وعلى المدى الطويل، للأهداف الأمريكية، واحداً بعد الآخر، وبطريقة مفاجئة، مع التركيز على الأهداف الرخوة، حيث يؤدي ذلك إلى إرباك وإنهاك الولايات المتحدة وأجهزتها الأمنية والعسكرية التي ستجد نفسها في موقف دفاعي دائم في حرب ليس لها حدود.

في 29 ديسمبر 1992، انفجرت قنبلة في فندق غولدن مور في عدن، حيث كان يقيم جنود أمريكيون أثناء توجههم إلى مهمة في الصومال. نفذ العملية عنصران من تنظيم الجهاد اليمني تدربا في معسكرات القاعدة في أفغانستان، وكانت هذه أول عملية تستهدف فيها القاعدة قوات أمريكية.

في 26 فبراير 1993، تم تفجير مركز التجارة العالمي في نيويورك بسيارة مفخخة، ما أدى إلى مقتل 6 أشخاص وإصابة أكثر من 1000 آخرين. كانت العملية من تدبير الباكستاني رمزي يوسف: ابن أخت خالد شيخ محمد: العقل المدبر لهجمات 11 سبتمبر. نجح رمزي في الفرار إلى باكستان وظل هناك لمدة عامين إلى أن اعتقل في فبراير / مارس 1995 في دار ضيافة يمولها بن لادن. وتم تسليمه إلى الولايات المتحدة، ومثل أمام القضاء ونال حكماً بالسجن المؤبد.

وتبين من التحقيقات أن رمزي، الذي قاتل إلى جانب الجهاديين العرب في أفغانستان في الثمانينيات، كان يخطط لتفجير أهداف أخرى؛ منها مقر الأمم المتحدة ونفق لينكولن وجسر جورج واشنطن ومكاتب مكتب التحقيقات الفدرالي في مدينة نيويورك. كما اتضح أن عمر عبد الرحمن: الأمير الروحي للجماعة الإسلامية بمصر، والذي كان مقيماً وقتها في نيويورك، هو المحرض على هذه العمليات، حيث أفتى بجواز القيام بها نكاية في أمريكا التي تحارب المسلمين وتحتل بلادهم. وقد اعتقل بدوره وحكم عليه بالسجن المؤبد، وتوفي في سجنه بولاية كارولينا الشمالية عام 2017.

في 3 و4 أكتوبر 1993، شارك عناصر من القاعدة إلى جانب مسلحين صوماليين في القتال ضد جنود أمريكيين بمدينة مقديشو. قتل في الاشتباكات 18 جندياً أمريكياً، ووقع آخر في الأسر تم سحله في الشوارع في وضح النهار، على مرأى من كاميرات الإعلام العالمية، ما أجبر الولايات المتحدة على سحب قواتها من الصومال في مارس 1994 في خطوة اعتبرها بن لادن في ذلك الوقت «نصراً عظيماً».

في 13 نوفمبر 1995، انفجرت سيارة مفخخة في مركز تدريب الحرس الوطني في حي العليا بالعاصمة السعودية الرياض، ما أدى إلى سقوط 5 قتلى مدربين أمريكيين. نفذ العملية أربعة سعوديين سبق أن شاركوا في الجهاد الأفغاني هم: عبد العزيز المعثم (أبو عاصم)، رياض الهاجري، خالد السعيد، مصلح الشمراني. اعترف الأربعة بعد اعتقالهم بتأثرهم بكتاب «الكواشف الجلية في كفر الدولة السعودية» لأبي محمد المقدسي، وبالخطابات التحريضية لبن لادن ضد أمريكا، والتي كان يتم تسجيلها في أشرطة كاسيت وتهريبها إلى السعودية.

في يونيو 1996، هاجم بن لادن في لقاء مع الصحفي روبرت فيسك لـ «الاندبندنت» الولايات المتحدة الأمريكية، واتهمها بتحويل السعودية إلى «مستعمرة أمريكية»، وهدد باستهدافها مع فرنسا وبريطانيا إذا لم يسحبوا قواتهم ويغادروا بلاد الحرمين.

في 15 غشت 1996، أعلن أسامة بن لادن في بيان أصدره من أفغانستان الجهاد على الولايات المتحدة، واصفاً دخول قواتها إلى السعودية بـ «مصيبة من أعظم المصائب التي أصيب بها المسلمون منذ وفاة النبي (ص)»، ودعا إلى إخراج قوات التحالف الغربي من شبه الجزيرة العربية، وتحرير الأماكن المقدسة الإسلامية، والإطاحة بالحكومة السعودية.

في نوفمبر 1996، اعتبر بن لادن في لقاء مع الصحفي عبد الباري عطوان لـ «القدس العربي» أن الولايات المتحدة الأمريكية ارتكبت الخطأ الاستراتيجي الأكبر في تاريخها بدخولها الجزيرة العربية التي لم تدخلها أي ديانة غير إسلامية عبر أربعة عشر قرناً، وأن هذا الخطأ لا يمكن إصلاحه إلا بانسحابهم منها، وأن الهدف الذي يسعى إليه الآن هو تحريرها من «الكفار».

ويروي عطوان في كتابه «القاعدة: التنظيم السري»: «أخبرني الشيخ بن لادن أن أكبر صدمة تلقاها في حياته تمثلت في قرار الحكومة السعودية دعوة القوات الأمريكية للدفاع عن المملكة وتحرير الكويت. وكان يصعب عليه أن يصدق أن بيت آل سعود قد يرحب بانتشار قوات «ملحدة» على أرض شبه الجزيرة العربية؛ أي على مقربة من الحرمين الشريفين، للمرة الأولى منذ نشأة الإسلام».

في مارس 1997، دعا بن لادن في لقاء مع الصحفي الباكستاني حامد مير الشعب السعودي إلى تبني كل خطة وكل تكتيك يستهدف إخراج الأمريكيين من أرض السعودية، وكرر قوله إن الجريمة الأكبر التي ارتكبتها الولايات المتحدة هي أنها «دنست أرضنا المقدسة»، وأن العنف هو الطريقة الصحيحة لطرد الأمريكيين من السعودية.

وفي مارس 1997 أيضاً، اعتبر بن لادن في لقاء مع شبكة سي ان ان الأمريكية أن مشكلته الأساسية في هذه المرحلة ليست مع النظام الحاكم في السعودية، مع أنه أصبح خارج دائرة الإسلام، ولكنها مع الحكومة الأمريكية، وأن النظام السعودي ما هو إلا فرع أو أداة في يد الولايات المتحدة، وأن الجهاد ضد الولايات المتحدة لن ينتهي حتى مع انسحابها من الجزيرة العربية، ولكنه سيستمر حتى تتوقف عن تدخلاتها العدوانية ضد المسلمين في كل العالم.

في يناير 1998، اعتقلت السلطات السعودية خلية جهادية وبحوزتها صواريخ مهربة من اليمن كانت تخطط لاستخدامها في ضرب القنصلية الأمريكية في جدة أثناء زيارة نائب الرئيس الأمريكي آل جور للسعودية. وكان المسؤول عن الخلية هو عبد الرحيم الناشري (أبو بلال المكي) الذي سيترأس لاحقاً عمليات القاعدة في الخليج العربي.

في فبراير 1998، أصدر بن لادن البيان التأسيسي لـ «الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين»، وتضمن البيان فتواه الشهيرة، باعتبار قتل الأمريكيين ـ مدنيين وعسكريين ـ وضرب مصالحهم في كل مكان هو «فرض عين» على المسلمين في كل أنحاء العالم. وقد وقع على البيان إلى جانب بن لادن: أيمن الظواهري (أمير جماعة الجهاد المصرية)، رفاعي أحمد طه (عضو مجلس شورى الجماعة الإسلامية بمصر)، مير حمزة (سكرتير جمعية علماء باكستان)، فضل الرحمن خليل (أمير حركة الأنصار في باكستان)، وعبد السلام محمد خان (أمير حركة الجهاد في بنغلادش).

في 7 غشت 1998، نقل تنظيم القاعدة تهديداته إلى أرض الواقع، بتفجير السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا، ما أدى إلى مقتل 225 شخصاً منهم 12 أمريكياً والباقي كلهم أفارقة. تبنى العملية التي نفذها انتحاريان سعودي ومصري الجيش الإسلامي لتحرير المقدسات ـ الجناح العسكري للجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين ـ من خلال بيان وزع على وسائل الإعلام العالمية.

في ديسمبر 1998، أجرى بن لادن مقابلات مع مجلة «التايم» وشبكة «ا بي سي» هدد فيها الولايات المتحدة باستهداف مصالحها في كل مكان في العالم إذا لم تسحب قواتها من السعودية وتكف عدوانها عن المسلمين.

وفي 12 أكتوبر 2000، هاجم انتحاريان يمنيان من القاعدة بزورق محمل بالمتفجرات المدمرة الأمريكية يو اس اس كول أثناء رسوها في ميناء عدن للتزود بالوقود، ما أدى إلى مقتل 17 بحاراً أمريكياً وجرح 39 آخرين. وأشرف على العملية السعودي عبد الرحيم الناشري (أبو بلال المكي) واليمني توفيق بن عطاش (خلاد).

ثم جاءت تفجيرات 11 سبتمبر 2001 لتشكل لحظة الذروة في صراع القاعدة والجهاديين ضد عدوهم الجديد، حيث تم اختطاف أربع طائرات أمريكية أثناء تحليقها في الجو في رحلات داخلية، وتوجيهها لضرب ثلاثة مواقع استراتيجية، كل واحد منها يمثل رمزاً للقوة الأمريكية: طائرتان ضربتا برجي مركز التجارة العالمية في نيويورك الذي يرمز إلى القوة الاقتصادية الأمريكية، والثالثة ضربت مقر وزارة الدفاع (البنتاغون) في واشنطن الذي يرمز إلى القوة العسكرية الأمريكية، والرابعة تحطمت فوق بنسلفانيا، وكانت في طريقها لضرب البيت الأبيض الذي ينظر إليه على أنه مركز الديمقراطية الأمريكية. وقد أشرف على العملية الكويتي ـ الباكستاني خالد شيخ محمد، وتولى التنسيق الميداني اليمني رمزي بن الشيبة، في ما تشكلت خلية الخاطفين من 19 عنصراً بقيادة المصري محمد عطا (أبو عبد الرحمن).

بعد أحداث 11 سبتمبر، انتبه الجهاديون إلى مسألة التأصيل لمشروعية قتال الولايات المتحدة (= «العدو البعيد») من الناحية الدينية، حيث لم يكن هناك حتى تلك اللحظة كتابات خاصة بهذا الموضوع خارج خطب ورسائل وتصريحات بن لادن الصحفية، فكل الأدبيات الجهادية المتداولة، التي كتب معظمها في مصر في سنوات السبعينيات والثمانينيات، كانت مخصصة بالكامل للتأسيس للتمرد والخروج على الحكام العرب الذين لم يعودوا مسلمين، وتحولوا إلى «طواغيت»، والدعوة إلى قتال الأنظمة العربية التي تخلت عن الشريعة الإسلامية واستبدلتها بقوانين وتشريعات «كفرية».

في سبتمبر 2001: أياماً بعد الهجمات، أصدر المنظر الجهادي البارز أبو قتادة الفلسطيني مقالاً بعنوان «الرؤية الشرعية لأحداث أمريكا»، وكان قد أصدر عام 1998: في أعقاب تفجير القاعدة للسفارتين الأمريكيتين في شرق إفريقيا، مقالاً وزع على نطاق واسع بعنوان «الإسلام وأمريكا: علاقة يصنعها السيف»، وفي نوفمبر 2001، أصدر المنظر الجهادي السعودي عبد العزيز الجربوع كتاباً بعنوان «التأصيل لمشروعية ما حصل لأمريكا من تدمير، كما أصدر ناصر الفهد، وهو منظر جهادي سعودي آخر، في التاريخ نفسه، كتاباً بعنوان «التبيان في كفر من أعان الأمريكان»، وفي أواخر عام 2001، أصدر مؤسس تنظيم أنصار الشريعة في لندن وقتها مصطفى كامل (أبو حمزة المصري) شريطاً صوتياً بعنوان «المؤمنون ضد كفر أمريكا»، وفي عام 2002، أصدر المنظر الجهادي المصري عزت النجار (أبو العابدين) كتاباً بعنوان «غارات الإيمان على جيوش الصليب وديار الأمريكان»، وفي سبتمبر 2002، كتب المنظر الجهادي السعودي أحمد الخالدي «رسالة إلى النصارى من الأمريكان وغيرهم»، وجاء فيها: «واعلموا أن جهادنا وقتالنا معكم لا يحتاج إلى فتوى مفتي ولا دراسات وبحوث ولا استشارة من لا رأي له ولا يملك من أمره شيئاً، فقد أفتانا الله من غير سؤال...».

وتتلخص الفكرة التي تدور حولها هذه الكتابات / التأصيلات في أن هناك حرباً دينية صليبية تاريخية يشنها الغرب ضد الإسلام والمسلمين، وأن هذه الحرب ما زالت قائمة، وأن المعركة الحالية التي تقودها الولايات المتحدة ليست حالة معزولة، إنما هي استمرار لهذه الحرب، وأنها معركة ضد الإسلام، والإسلام وحده هو المقصود، وأن الولايات المتحدة تعادي قضايا الأمة الإسلامية، وتحتل بلاد المسلمين، ولا تريد للإسلام أن يكون له وجود على شكل دولة وقوة، وأن القاعدة والجهاديين باستهدافهم وضربهم لأمريكا في عقر دارها إنما يدافعون عن الدين، مع ضعفهم وقلتهم، ويحررون أمتهم من هيمنة الغرب، وعملهم من الجهاد في سبيل الله.

وأدت الحرب الأمريكية على أفغانستان في أكتوبر 2001 إلى إسقاط نظام طالبان الذي يدعم القاعدة ويوفر لها الملاذ والحماية، وتدمير البنية التحتية: اللوجستية والبشرية، للقاعدة بشكل كامل. وكان بن لادن قد أصدر عند بدء الحرب بياناً صوتياً ضمنه قسمه الشهير:

«أقسم بالله العظيم الذي رفع السماء بلا عمد، لن تحلم أمريكا ولا من يعيش في أمريكا بالأمن من قبل أن نعيشه واقعاً في فلسطين، وقبل أن تخرج جميع الجيوش الكافرة من أرض محمد صلى الله عليه وسلم».

وشهدت الفترة التي تلت 11 سبتمبر تركيزاً كاملاً من قبل القاعدة والمجموعات الجهادية التابعة / أو الموالية لها على استهداف الأمريكيين في كل مكان. كانت الفكرة التي تمت مناقشتها في الدوائر الداخلية للقاعدة أن يستغل الجهاديون حالة الخوف التي تكتسح العالم لاستنزاف أمريكا وحلفائها الأوروبيين إلى الحد الأقصى، من خلال شن هجمات صغيرة ومتتالية لا تأخذ الكثير من الوقت في التحضير ولا تحتاج إلى الكثير من المنفذين، مع توسيع نطاقها بقدر الإمكان، والحرص على أن تكون صاخبة وذات مردود إعلامي واسع ومدوّ، لكسر أمن أمريكا ودول أوروبا، وإثارة الرعب في نفوس شعوبها، وإيقاع أي خسائر مادية أو بشرية ممكنة فيهم، وهو ما يعرف في الأدبيات الجهادية بـ «جهاد النكاية»، وفي أدبيات الإرهاب ومكافحته باستراتيجية «الألف جرح» التي تعمل على إنهاك العدو واستنفاذ قوته حتى الموت.

ففي اليمن، أسس زين العابدين المحضار (أبو الحسن) جيش عدن أبين الإسلامي عام 1997، وبعد تفجيرات شرق إفريقيا التي استهدفت السفارتين الأمريكيتين في نيروبي ودار السلام في غشت 1998، أعلن المحضار تأييده لبن لادن والقاعدة، ودعا الشعب اليمني «لقتل الأمريكان وتدمير ممتلكاتهم»، ومن بين العمليات التي نفذها التنظيم تفجير ناقلة النفط الفرنسية ليمبورغ أثناء رسوها في ميناء ضبة في 6 أكتوبر 2002، وقتل ثلاثة أطباء أمريكيين في مستشفى تابع لجمعية خيرية مسيحية في ديسمبر من العام نفسه.

في اليمن أيضاً، أسس قايد سالم سنيان الحارثي (أبو علي الحارثي) مجموعة تابعة للقاعدة عام 1998 نفذت العديد من العمليات منها المشاركة في تفجير المدمرة الأمريكية يو اس اس كول في 12 أكتوبر 2000، وتفجير مبنى السفارة البريطانية في صنعاء بعدها بيوم، بالإضافة إلى المشاركة في تفجير ناقلة النفط الفرنسية ليمبورغ عام 2002.

وفي عام 2006، أسس ناصر الوحيشي (أبو بصير): السكرتير السابق لبن لادن، تنظيم القاعدة في جزيرة العرب الذي نفذ العديد من العمليات أبرزها الهجوم الانتحاري الذي استهدف السفارة الأمريكية في صنعاء في 18 سبتمبر 2008، وهي العملية المعروفة في أدبيات الجهاديين في اليمن باسم «غزوة الفرقان»، ومحاولة تفجير طائرة أمريكية متجهة من أمستردام إلى ديترويت في 25 ديسمبر 2009، وهي العملية التي نفذها النيجيري عمر فاروق عبد المطلب.

في السعودية، تشكلت الخلايا الأولى للفرع السعودي للقاعدة عام 1998، وبعد أحداث 11 سبتمبر، توحدت تحت قيادة يوسف العييري، وهو مرافق سابق لبن لادن أيام الجهاد الأفغاني، وفي عام 2003، دخل التنظيم في مواجهة مسلحة مع الدولة السعودية وصلت خلال العامين 2004 ـ 2005 إلى مرحلة كسر العظم، واستمرت حتى نهاية عام 2006، ومن بين العمليات التي نفذها ضد أهداف أمريكية داخل السعودية تفجيرات شرق الرياض في 12 مايو 2003 التي أسقطت 26 قتيلاً منهم 9 أمريكيين، وهي العملية المعروفة في أدبيات التنظيم باسم «بدر الرياض»، والهجوم على مقر شركة هلبرتون الأمريكية في الخبر في 29 مايو 2004، واقتحام القنصلية الأمريكية في جدة في 6 ديسمبر 2004.

في العراق، وبعد الغزو الأمريكي في مارس 2003، أسس أبو مصعب الزرقاوي جماعة التوحيد والجهاد، وفي أكتوبر 2004، أعلن بيعته لبن لادن، وتم تغيير اسم الجماعة إلى «قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين»، وشن التنظيم مئات الهجمات على القوات الأمريكية في العراق كبدتها خسائر كبيرة، كما ركز على استهداف الشيعة باعتبارهم حلفاء للأمريكيين في احتلال العراق.

في الكويت، في 8 أكتوبر 2002، تعرض جنود أمريكيون لإطلاق النار في جزيرة فيلكا ما أدى إلى مقتل جندي مارينز وجرح آخر. ونفذ الهجوم الكويتيان أنس الكندري الذي تدرب في معسكرات القاعدة في أفغانستان، وجاسم الهاجري الذي تربطه صلة قرابة بالناطق الرسمي السابق باسم تنظيم القاعدة سليمان بوغيث، والذي تدرب وقاتل في أفغانستان والبوسنة.

في الكويت أيضاً، أسس عامر العنزي (أبو البراء النجدي) عام 2004 خلية «أسود الجزيرة» التي كانت تخطط لتنفيذ هجمات ضد عسكريين أمريكيين وأهداف غربية، وتم تفكيك الخلية عام 2005 بعد سلسلة من الاشتباكات المسلحة مع قوات الأمن.

في الأردن، في 28 أكتوبر 2002، تم اغتيال الدبلوماسي الأمريكي لورنس فولي الذي كان يشغل منصب مسؤول فرع الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية في عمان. وقد خطط للعملية أبو مصعب الزرقاوي قبل دخوله العراق: أثناء وجوده في جبال كردستان، ونفذها الليبي سالم بن صويد والأردني ياسر فريحات (أبو فراس / أبو معاذ).

في الأردن أيضاً، ظهرت عام 2004 في العاصمة عمان مجموعة جهادية باسم «كتائب التوحيد» كانت تخطط لشن هجمات على مبنى المخابرات العامة والسفارة الأمريكية، وكان قائد هذه المجموعة: عزمي الجيوسي (أبو عطا) تابعاً بشكل مباشر للزرقاوي وتنظيم القاعدة في العراق.

وفي عام 2005، ظهرت مجموعة أخرى باسم «الطائفة المنصورة» بقيادة أحمد شبانة، وهو إمام مسجد، كانت تخطط لتنفيذ هجمات ضد أهداف أمريكية في عمان، منها قاعدة لتدريب الشرطة العراقة يشرف عليها خبراء أمريكيون.

وفي 19 غشت 2005، تم إطلاق ثلاثة صواريخ كاتيوشا على بارجة حربية أمريكية راسية قبالة ميناء العقبة، ما أدى إلى مقتل جندي أردني وإصابة آخر بجراح. تبنى تنظيم القاعدة في العراق العملية، وتولى التنفيذ مجموعة مكونة من جهاديين عراقيين وسوريين أرسلهم الزرقاوي بقيادة محمد حميد حسن (أبو المختار).

في لبنان، نفذت مجموعة «ابن الشهيد»، وهي مجموعة جهادية أسسها في مخيم عين الحلوة للاجئين الفلسطينيين عبد الله العوامي (ابن الشهيد)، وهو يمني تدرب وقاتل في البوسنة، عدداً من التفجيرات التي استهدفت مطاعم ماكدونالد ومؤسسات تجارية أمريكية خلال الفترة بين نهاية عام 2002 وأبريل 2003، كما كانت تخطط لاقتحام السفارة الأمريكية في بيروت بوساطة شاحنة مفخخة.

وحتى في فلسطين، تأسس في غزة عام 2007 تنظيم جهادي باسم جيش الأمة بقيادة إسماعيل حميد (أبو حفص المقدسي)، ومع أن نشاطه العسكري اقتصر على إطلاق صواريخ محلية الصنع على المستوطنات الإسرائيلية، كان «العدو» الغربي / الأمريكي حاضراً في إستراتيجيته القتالية، إذ حدد في بيانه التعريفي أنه «تجمع مسلم يتبنى المشروع الإسلامي لمواجهة المشروع الغربي الصليبي في العالم كله».

كذلك شهدت الفترة التي أعقبت تفجيرات 11 سبتمبر ظهور العديد من الخلايا الجهادية التي تسعى إلى تنفيذ هجمات داخل الأراضي الأمريكية أبرزها خلية لاكوانا بنيويورك التي أسسها في أواخر عام 2001 اليمني / الأمريكي جابر البنا، وتضم عناصر تلقوا تدريبات عسكرية متقدمة بمعسكر الفاروق التابع لتنظيم القاعدة في أفغانستان، وخلية بورتلاند التي تشكلت عام 2003 بمدينة بورتلاند في ولاية أوريغون، وخلية ليبرتي سيتي التي كان أفرادها يخططون عام 2006 لتفجير برج سيرز في شيكاغو: أعلى ناطحة سحاب في أمريكا، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، ومجمع المحاكم الاتحادية في ميامي.

وكذلك الخلية التي شكلها الأمريكي من أصل أفغاني نجيب الله زازي، وكانت تحضر لتفجير شبكة مترو الأنفاق بنيويورك يوم 11 سبتمبر 2009 الذي يصادف الذكرى السنوية الثامنة لهجمات نيويورك وواشنطن عام 2001، وسبق لزازي واثنين من أفراد الخلية أن تدربوا في معسكر تابع للقاعدة في أفغانستان عام 2008.

وفي 5 نوفمبر 2009، قام نضال حسن، وهو طبيب نفسي وضابط في الجيش الأمريكي (من أصل فلسطيني)، بقتل 13 من زملائه في قاعدة فورت هود العسكرية بولاية تكساس بإطلاق النار عليهم. وكان نضال على تواصل مع رجل الدين الأمريكي / اليمني أنور العولقي: الإمام السابق لمركز دار الهجرة: أحد أكبر المراكز الإسلامية بواشنطن، والمنظر الرئيسي لتنظيم القاعدة في اليمن، الذي دعمه وأفتاه بجواز قتل الجنود الأمريكيين.

وفي مارس 2014، اعتقل مكتب التحقيقات الفيدرالي أحد أفراد الحرس الوطني في كاليفورنيا يدعى نيكولاس توسانت كان يخطط لمهاجمة مترو أنفاق لوس أنجلوس يوم رأس السنة الجديدة، وكان نيكولاس، الذي تحول إلى الإسلام حديثاً وغير اسمه إلى أسيد عبد الرحيم، على تواصل مع عناصر من القاعدة في سوريا.

وعرفت أوروبا ظهور العديد من الخلايا التي تسعى خلف أهداف أمريكية وغربية مثل خلية فرانكفورت التي تشكلت في ألمانيا عام 1999، ويغطي نشاطها ست دول أوروبية: ألمانيا، فرنسا، بريطانيا، بلجيكا، إسبانيا، إيطاليا، وكان عناصرها، ومعظمهم تدربوا في معسكرات القاعدة في أفغانستان، يخططون لتفجير سوق أعياد الميلاد والكنيس اليهودي بمدينة ستراسبورغ الفرنسية في ديسمبر 2000.

وخلية زاورلاند التي تشكلت عام 2007 في مقاطعة شمال الراين، وكان أفرادها الأربعة (3 ألمان وتركي) يحضرون لمهاجمة أهداف أمريكية في ألمانيا.

وخلية بروكسيل في بلجيكا التي تشكلت عام 2000، وكانت تحضر لتنفيذ هجوم على قاعدة عسكرية أمريكية في كلاين بروغل (شمال شرق بلجيكا)، ومن أبرز أفرادها لاعب كرة القدم التونسي السابق نزار طرابلسي الذي زار أفغانستان بين عامي 2000 ـ 2001، والتقى بن لادن، وتلقى تدريباً عسكرياً في أحد معسكرات القاعدة هناك.

وخلية ميلانو التي تلقى عناصرها، وأبرزهم التونسيان سامي الصيد ومختار بوشوشة، تدريبات عسكرية في أفغانستان بين 1997 ـ 2000، وكانوا يخططون لضرب أهداف أمريكية في إيطاليا.

وخلية باريس التي تشكلت عام 2001 بقيادة الجزائري جمال بغال، وكان أفرادها يخططون لتفجير السفارة الأمريكية في العاصمة الفرنسية. واعتقل بغال في يوليو 2001 بمطار دبي بالإمارات أثناء عودته من أفغانستان، وتم تسليمه إلى فرنسا، وحكم عليه بالسجن 10 سنوات بالإضافة إلى تجريده من الجنسية الفرنسية.

وفي فرنسا أيضاً، في 22 ديسمبر 2001، حاول ريتشارد ريد، وهو بريطاني من أصل جامايكي، إسقاط طائرة تابعة للخطوط الجوية الأمريكية أثناء تحليقها من باريس إلى ميامي باستخدام متفجرات مخبأة في حذائه. وتدرب ريد في معسكرات القاعدة في أفغانستان، حيث انضم إلى التنظيم هناك. وحكم عليه بالسجن لمدة 110 سنوات (3 مؤبدات) دون إمكانية الإفراج المشروط.

وهناك خلية أنصار الفتح التي أسسها جزائريون في باريس عام 2003: بعد الغزو الأمريكي للعراق، أبرزهم امحمد بن يمينة (أبو الليث الجزائري) وصافي بورادة، وهو عضو سابق في الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر، وكان مجال عملياتها يتوزع ما بين فرنسا والعراق.

والخلية العراقية التي تكونت عام 2004 في الدائرة الـ 19 في باريس، وجرى تفكيكها في يناير 2005، وكانت تخطط لتنفيذ تفجيرات ضد مصالح فرنسية وأمريكية في فرنسا، إلى جانب إرسال متطوعين إلى العراق لقاتل القوات الأمريكية، ومن أبرز عناصرها الجزائري فريد بن يطو والتونسي بوبكر الحكيم.

وخلية مدريد التي قامت في 11 مارس 2004 بتفجير أربعة قطارات بالعاصمة الإسبانية، ما أدى إلى مقتل 191 شخصاً (137 اسبانيا و54 من جنسيات أخرى)، وتتكون من 32 عنصراً بقيادة التونسي سرحان عبد المجيد فاخت، سبعة منهم فجروا أنفسهم في قوات الأمن أثناء محاصرتهم في مبنى سكني بعد أيام من العملية.

وخلية وود غرين في العاصمة البريطانية لندن التي أسسها الجزائري كمال بوجراس عام 2000، وكانت تخطط لشن هجوم على أهداف بريطانية وأمريكية باستعمال مادة «الريسين» السامة.

وخلية لندن التي تشكلت عام 2003 بقيادة الباكستاني عمر خيام، وكانت تحضر لتنفيذ سلسلة تفجيرات تستهدف مقاه وحانات ليلية وقطارات في المدينة انتقاماً من الحكومة البريطانية لمشاركتها مع الولايات المتحدة في الحرب على العراق.

والخلية التي نفذت تفجيرات لندن الانتحارية في 7 يوليو 2005 التي أوقعت 56 قتيلاً، وكانت مكونة من أربعة بريطانيين، ثلاثة من أصول باكستانية: محمد صديق خان، وهو قائد الخلية، شاه زاد تنوير، حسيب حسين، والرابع: جيرمين ليندسي، من أصل جامايكي. وأشاد الظواهري: نائب بن لادن وقتها، بالتفجيرات من خلال تسجيل مصور نشر في سبتمبر 2005، معلناً أن اثنين من منفذيها: محمد صديق خان وشاه زاد تنوير، تدربا في معسكرات القاعدة في أفغانستان.

وخلية غلاسكو التي تشكلت في لندن أيضاً، وقام اثنان من عناصرها، وهما الطبيبان العراقي بلال عبد الله والهندي كفيل أحمد، بمحاولة فاشلة لتفجير مطار غلاسكو: أكبر مدن اسكتلندا، بسيارة مفخخة في يونيو 2007.

وخلية مونتريال في كندا التي تأسست عام 1999، وكانت تحضر لتفجير مطار لوس أنجلس الدولي (مؤامرة الألفية)، ومن أبرز عناصرها الجزائري أحمد رسام الذي أقام في أفغانستان من أبريل 1998 إلى فبراير 1999، انضم خلالها إلى تنظيم القاعدة، وتدرب في معسكر خلدن التابع له في منطقة خوست الذي كان يديره الليبي محمد الفاخري (ابن الشيخ الليبي). واعتقل رسام في ديسمبر 1999 أثناء عبوره الحدود الكندية الأمريكية، وحكم عليه بالسجن 37 عاماً.

هذه أهم عمليات / أو محاولات القاعدة والمجموعات التابعة / أو الموالية لها لاستهداف المصالح الأمريكية والغربية، سواء في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، أو داخل الدول العربية؛ وذلك منذ إعلان بن لادن الحرب على «العدو البعيد» عام 1996، وتنفيذ تهديداته بتفجير السفارتين الأمريكيتين في شرق إفريقيا، والمدمرة الأمريكية في اليمن، وضرب برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك. كان هناك مخططات ومحاولات أخرى لم تتم بسبب التدابير الأمنية المتواصلة ضد الإرهاب التي أدت إلى مقتل أو اعتقال معظم قيادات وكوادر القاعدة، وعلى رأسهم خالد شيخ محمد الذي اعتقل بباكستان في مارس 2003، وبعد أربع سنوات: في 15 مارس 2007، اعترف أمام لجنة عسكرية أمريكية بمسؤوليته عن عملية 11 سبتمبر «من الألف إلى الياء»، كما اعترف بالتخطيط لعمليات أخرى كبيرة و«على مستوى عال» كانت ستنفذ في المستقبل ضد أهداف أمريكية في أنحاء مختلفة من العالم أبرزها: تفجير ناطحات

سحاب أمريكية في كاليفورنيا وشيكاغو وواشنطن ونيويورك، تدمير سفن عسكرية أمريكية وناقلات نفط في مضيقي هرمز وجبل طارق ومرفأ سنغافورة، تفجير قناة بنما، اغتيال عدد من الرؤساء الأمريكيين السابقين من بينهم جيمي كارتر، تفجير جسور معلقة في نيويورك، تفجير مطار هيثرو في لندن، مهاجمة سلسلة من الملاهي الليلية التي يرتادها أمريكيون وبريطانيون في تايلاند، تفجير السفارات الأمريكية في إندونيسيا وأستراليا واليابان، مهاجمة مقر حلف شمال الأطلسي (الناتو) في أوروبا.

خاتمة

يتبين من خلال تتبع مسار التيار الجهادي منذ تحوله من استهداف عدوه القريب إلى مطاردة «العدو البعيد» أن هذا التحول انتهى به إلى مرحلة من التشتت والضياع الاستراتيجي ما زال غارقاً فيها؛ وذلك لعدة أسباب منها عدم واقعية الهدف، وعدم مناسبة الإمكانيات المتاحة للاستمرار في هذا التوجه، كما أن العمليات التي قامت بها القاعدة ضد الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين طوال السنوات الماضية لم تؤثر بشيء في سياساتها تجاه قضايا العالم الإسلامي، بل أضرت بمصالح المسلمين وسمعتهم في مختلف أنحاء العالم، ثم إن هذا التحول كان مثار خلاف وعدم قبول من جميع الجهاديين الذين تمسك بعضهم بخيار التركيز على الأنظمة العربية «الأقرب» إليه، في ما اعتبر آخرون أن التمييز بين عدو داخلي وآخر خارجي والحديث عن أيهما أولى بالقتال «فلسفة فارغة» و«جدل عقيم»؛ لأن الواقع يؤكد أنهما على القدر نفسه من الأهمية، ولا اختلاف بينهما من حيث الخطورة، وعلى الجهاديين استهدافهم جميعاً في كل وقت: «أينما ثقفوا»، وهذه هي رؤية تنظيم الدولة الإسلامية (داعش).

ومع ذلك، في سبتمبر 2013: أي بعد عامين من الانتفاضات الشعبية التي أطاحت بعدة أنظمة عربية تمثل في نظر الجهاديين «العدو القريب»، أصدر الظواهري، الذي تولى قيادة القاعدة خلفاً لبن لادن الذي قتل عام 2011، وثيقة بعنوان «توجيهات عامة للعمل الجهادي»، جاء فيها:

«مما لا يخفى على الإخوة أن عملنا في هذه المرحلة ذو شقين: الأول عسكري، والثاني دعوي.

وأن العمل العسكري يستهدف أولاً رأس الكفر العالمي أمريكا وحليفتها إسرائيل، وثانياً حلفاءها المحليين الحاكمين لبلادنا.

واستهداف أمريكا هدفه إنهاكها واستنزافها، لتنتهي لما انتهى له الاتحاد السوفيتي، وتنكفئ على نفسها من خسائرها العسكرية والبشرية والاقتصادية، والتالي تخف قبضتها على بلادنا، ويبدأ حلفاؤها في التساقط واحداً بعد الآخر.

وما جرى في الثورات العربية دليل على تراجع النفوذ الأمريكي. فبسبب ضربات المجاهدين لأمريكا في أفغانستان والعراق، وبسبب تهديد أمن أمريكا منذ الحادي عشر من سبتمبر 2001، بدأت أمريكا تسمح بتنفيس الضغط

الشعبي، فانفجر في وجه عملائها، وستشهد المرحلة القادمة ـ إن شاء الله / مزيداً من التراجع والانكفاء الأمريكي، الذي سيزعزع سلطات حلفائها.

وأما استهداف عملاء أمريكا المحليين فيختلف من مكان لمكان، والأصل ترك الصراع معهم إلا في الدول التي لا بد من مواجهتهم فيها».

هكذا يؤكد الظواهري في آخر توجيه تشغيلي أصدرته القاعدة أن الإستراتيجية التي اعتمدها بن لادن منذ حرب الخليج الثانية عام 1990 ما زالت قائمة، لم يطرأ عليها أي تغيير، وأن الأولوية ما زالت لقتال أمريكا (= العدو البعيد) على حساب الحكومات العربية (= العدو القريب) التي تأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية، حيث يمكن تأجيل مواجهتها إلا في حالة الضرورة.

جميع الحقوق محفوظة © 2023

المركز العربي لدراسات التكرف
The Arab Center for Extremism Studies